أصالة رؤيا المسيح في حياة القدّيس سلوان الآثوسيّ

الأرشمندريت زخريا (زاخارو)

المسيح هو المعجزة التي تُذهلنا. هو الآية التي أعطاها الله لجميع الأجيال على مدى العصور؛ وفي شخصه، أُعطيَ الحلّ لكلّ مشكلةٍ وصعوبةٍ ومأساة. والقدّيسون أيضًا آيةٌ من الله لجيلهم لأنّهم يقتدون بالمسيح ويحملونه في قلوبهم. إنّهم يصبحون أدلّةً ملموسةً على محبّة الله في عالمٍ غارقٍ في ظلام الجهل واليأس.

يقدّم القدّيسون، بكلامهم وصلواتهم، إجاباتٍ عن أسئلة معاصريهم وحلولًا لمشكلاتهم. بالأحرى، الله نفسه يكلّم كلَّ جيلٍ بوساطة أعزّ أصدقائه، أي القدّيسين. وهذا الكلام الصادر إمّا عن الله مباشرةً وإمّا عن قدّيسيه، هو الذي سيدينُنا في اليوم الأخير (راجع يو 12: 48).

مؤخّرًا، أُعلنت قداسة الشيخ صفروني رسميًّا وأُدرج في مصافّ قدّيسي الكنيسة. ومن الأكيد للذين عرفوه، وكذلك للذين قرأوا كلامه المملوء حكمةً إلهيّةً والذي تركه لنا إرثًا، أنّه كان يملك حكمةً إلهيّة.

كانت قد أُعلنت قداسة شيخه القدّيس سلوان قبل ثلاثين سنة بوصفه "معلّمًا للكنيسة نبويًّا ورسوليًّا"، لكنّ كثيرين يعتبرون أنّ قامته الروحيّة مستترةٌ خلف بساطة كلامه. أخذ القدّيس صفروني هذا الأمر بعين الاعتبار عندما نشر كتابات القدّيس سلوان، فأرفقها بمقدّمةٍ من كتابته شرح فيها لمفكّري زمانه الأكثر تعمّقًا كلمات أبيه في الله، "الكلمات المقدّسة والنقيّة" ولكن "التي يصعب فهمها بسبب بساطتها".

يمكن تشبيه كتابات القدّيس سلوان بإنجيل القدّيس يوحنّا، الذي يُعدُّ الأبسط من الناحية اللغويّة ولكنّه يحتوي على كمال المعاني والكشف الإلهيّ.

إنّ حياة القدّيس سلوان لا تثير الاهتمام من حيث ظاهرها. فقد كان فلّاحًا روسيًّا، ونال تعليمًا متواضعًا، وعاش في دير القدّيس بندلايمون في جبل آثوس. لا يسمح لنا الوقت بالخوض في تفاصيل حياته الرهبانيّة، لكن ثمّة حدثان محوريّان طبَعا مسيرته الروحيّة.

يصفه كاتب سيرته بأنّه "رجلٌ ذو عطشٍ إلى الله لا يرتوي". في الواقع، كان الشوق إلى الله يحرقه حتّى قبل ذهابه إلى الجبل المقّدس وحتّى آخر يومٍ من حياته. منذ وصوله إلى الدير، عاش في جهادٍ روحيٍّ شديد. كان يحاول الالتزام بدقّةٍ وإصرارٍ كبيرَين بكلّ جانبٍ من جوانب الحياة الروحيّة: الصلاة غير المنقطعة، والخدم الكنسيّة، والمهامّ المرهقة، والسهرانيّات، والصوم، والمحبّة الأخويّة، وطبعًا قبل كلّ شيء، الطاعة.

بعد ستّة أشهر، ظنَّ أنّه بلغ ملء البرّ البشريّ، فتعب إلى حدّ اليأس، حتّى إنّه قبِلَ الفكر الذي قال له إنّ الله لا يُصغي إلى صلواته وإنّه قاسٍ لا يرحم.

ولكن، مَن هو الإنسان المخلوق والمحدود ليوجّه كلامًا كهذا إلى الله؟ كان ذهنُ المبتدئ الشابّ مغشّى، وغرقت روحه في عذابٍ لا يُطاق وفي ظلام الجحيم. مع ذلك، ذهب إلى الكنيسة حيث كانت الأخويّة مجتمعة، وفيما كان يسجد أمام أيقونة الربّ، وجدَ القوّة ليدعو اسمه قائلًا: "ربّي يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطئ". حينها، نال البركة الفائقة الوصف، بركة معاينة المسيح حيًّا في موضع أيقونته.

في تلك اللحظة، امتلأ كيانُه كلُّه بالنعمة الإلهيّة، وحتّى جسده اشتهى أن يتألّم من أجل المسيح. نعلم من كلمات القدّيس سلوان أنّ النور الإلهيّ العظيم أشرق عليه، وأنّه نُقِلَ إلى السماء بالروح، حيث سمعَ كلماتٍ لا يُنطَقُ بها، ونالَ في تلك اللحظة ولادةً جديدةً من العُلى. ومع أنّه كان يسمع منذ طفوليّته في الخدم الكنسيّة: "المجد للآب والابن والروح القدس"، ففي تلك اللحظة فقط أدرك فعلًا وجود الروح القدس. اتّسع قلبه وبدأ سلوان غير المتعلّم –وفقًا لمعايير العالم- والذي لم يسبق له قطّ أن رأى خريطةً للأرض، بدأ بالصلاة من أجل خلاص العالم بأسره، وصار يرغب في أن ينال كلّ كائنٍ بشريٍّ الحصّة عينها من النعمة التي أُعطيَ هو أن ينالها.

عاش فرحًا فصحيًّا فترةً قصيرةً بعد الرؤيا، لكنّ طبيعته لم تكن متوافقةً بعد مع النعمة التي نالها، وسرعان ما بدأ حربًا طويلةً وضروسًا مع الأفكار، بخاصّةٍ أفكار المجد الباطل. وبسبب هذه الأفكار، كانت الشياطين تظهر له أحيانًا بهيئةٍ منظورةٍ وتعذّبه. حاربَ بشجاعةٍ وصبرٍ مدّة خمسة عشر عامًا؛ فكان ينام قليلًا، ويصلّي بكثافةٍ وحرارةٍ عظيمتَين، ويعمل بلا كلل.

ذات ليلة، فيما كان يهمُّ بالسجود أمام المسيح، ظهر أمامه شيطانٌ مستعدٌّ لتلقّي هذا السجود لنفسه. فيئس القدّيس وجلس على كرسيّه، وسأل الربَّ بألمٍ في قلبه أن يعلّمه ماذا يجب أن يفعل ليواضع روحه، حتّى لا تعود تُزعجه الشياطين. ثمّ سمع في قلبه صوتَ الله مجيبًا: "أبقِ ذهنكَ في الجحيم ولا تيأس".

قدّمَ له الربُّ الجحيم، لكنّ القدّيس قبِلَ الكلمة بشُكران. بدأ بالسلوك وفقًا لتوجيه الربّ، وكما يشهد هو نفسه، "تطهّر ذهنُه ووجدت نفسُه الراحة".

كما تُظهِرُ كلمات المسيح في الإنجيل، لا تكمن معرفة الله الكاملة في المساعي الفكريّة، بل في معاينة وجهه بالروح القدس، وفي صدى صوته في القلب. لكي يُريَ الربُّ اليهود أنّهم لم يعرفوا الله بحقّ، قال لهم: "لم تسمعوا صوته (الآب) قطّ ولا أبصرتُم هيئته" (يوحنّا 5: 37). فالله يُعرف من خلال الشركة الشخصيّة معه. وكما كان يقول القدّيس صفروني، معرفة الله واللاهوت كحالةٍ روحيّةٍ هما "الشركة في الكائن".

يدّعي كثيرون أنّهم عاينوا المسيح أو والدة الإله أو الملائكة، ولكن توجد في الكنيسة معايير ثابتةٌ لأصالة الرؤيا. في حالة معاينة القدّيس سلوان للمسيح، ما يشهد على أصالة هذه الخبرة هي المفاعيل المباشرة لهذه الرؤيا، وكذلك حياة القدّيس اللاحقة.

دعونا نفحص بإيجازٍ بعض النقاط التي تؤكّد أصالة رؤيا القدّيس سلوان، وأيضًا كمال هذا الرجل القدّيس:

1. انتقال النعمة إلى الجسد أيضًا

أوّلًا، لم تكن النعمة التي نالها ضربًا من خياله، بل كانت ملموسةً جدًّا. فكما أنّه شعر خلال جهاده النسكيّ بلُهب الجحيم تُحدِثُ جلبةً حوله، وتعذّب كيانه كلّه، جسدًا ونفسًا وروحًا، شعر أيضًا بالنعمة تغمر كيانه حتّى نخاع عظامه. اضطرم قلبه بمحبّةٍ عظيمةٍ تجاه المخلّص يسوع حتّى إنّه اشتاق إلى الاستشهاد من أجله.

2. كلام الكاملين

عندما زار القدّيس ستراتونيكوس -وهو ناسكٌ قدّيسٌ من بلاد القوقاز- القدّيس سلوان طلبًا للمنفعة الروحيّة، سأله الشيخ: "كيف يتكلّم الكاملون؟"، وقدّم بنفسه الإجابة قائلًا إنّ "الكاملين لا يقولون شيئًا من أنفسهم، بل ينطقون فقط بما يعطيهم الروح".

في الواقع، كشفَ بإجابته هذه عن طريقته هو في الكلام والكتابة. وعلى الرغم من بساطة كلماته وعفويّتها، فهي كلماتٌ تفتح آفاقًا جديدة. إنّها تضيء"مثل سراجٍ منيرٍ في موضعٍ مُظلم" (راجع 2 بط 1: 19)، وتقدّم حلولًا لمسائل ملحّةٍ وتُعرّفُ "سبُلَ الحياة" (راجع مز 15: 11). إنّها ثمرة صلاته ورجائه بأن "تحبَّ الربَّ ولو نفسٌ واحدة، وتعود إليه بنار التوبة".

3. التواضع الروحيّ

عندما شاهدَ القدّيس سلوان نظرة المسيح المتواضعة والهادئة والمُحِبّة، عرفَ في قلبه التواضع الإلهيّ "الفائق الوصف"، الذي له رتّلَ منذ ذلك الحين نشيدًا في كتاباته، وبحث عنه "مثل لؤلؤةٍ ثمينةٍ متلألئة". وعلى غرار بقيّة الآباء القدّيسين، ميّزَ بين نوعَين من التواضع: التواضع النسكيّ، والتواضع المواهبيّ أو الروحيّ.

التواضع النسكيّ هو جهاد الإنسان ليُصغّر نفسه أمام الله وإخوته. وذروة هذا التواضع هو أن يعتبر المرء نفسَه أسوأ من الكلّ.

مع ذلك، ليس هذا التواضع كاملًا لأنّه يخفي مقارنةً بالآخرين. أمّا التواضع الإلهيّ الحقيقيّ فقد أظهره المسيح بنزوله من السماء إلى أسافل الأرض، وهو عطيّةٌ من نعمته. يتجسّد التواضع الشبيه بتواضع المسيح في مفارقة أنّ الله غير المخلوق وغير المحدود والأزليّ أخلى ذاته وبذلَ حياته ليُعتق مخلوقه من الموت.

في الأوقات التي تزور فيها النعمة الإنسان، يدرك العناية والتدبير الإلهيّين المرهبَين. يرى تاريخَ العالم على أنّه عنايةٌ إلهيّةٌ مُحِبّةٌ متواصلة. وحينها، يقتنع في أعماق كيانه بأنّه ليس أسوأ الناس فحسب، بل أيضًا غير مستحقٍّ لإلهٍ مثل المسيح.

4. التوبة الشاملة

إنّ هذا الوعي لعدم استحقاقنا الشديد وعدم نفعنا أمام الربّ يسوع، ممزوجًا بالشُّكران على محبّته حتّى المنتهى وآلامه التي تفوق الإدراك، يُفضيان إلى توبةٍ لا تعرف نهايةً على الأرض.

تتكلّم بداية إنجيل المسيح ونهايته كلاهما على التوبة. ولا يمكن للإنسان أن يبلغ الله من دون التوبة. بكلامٍ آخر، تشبه التوبة جسرًا يربط بين حافتَي هاويةٍ سحيقة.

بلغ القدّيس سلوان حالاتٍ قصوى في توبته الشخصيّة وجهاده للمصالحة مع الله. وخلال معاينته الربّ يسوع، انتقلت إليه حالة الربّ. نال نعمةً وسّعتْ قلبَه ليحضن الأشياء كلّها، السماء والأرض، الله والإنسان.

حملَ المسيح ثقلَ خطيئة العالم بأسره، "إذ صار لعنةً لأجلنا" (غلا 3: 13). وجميع الذين يتبعونه وينالون حالته، مثل القدّيس سلوان، يلومون أنفسهم على سقوط البشريّة ويتوبون عنها. كيف يمكن للمرء أن يقتني وعيًا شاملًا كهذا؟

عندما يشرق نورُ النعمة في القلب، يكشف عن الظلمة التي يحملها الإنسان في داخله، ولكن أيضًا عن اشتراكه في الجوهر عينه مع البشريّة مجتمعة. لا يعود القريبُ شخصًا ما، شخصًا غريبًا يطمع في ممتلكاتنا، بل يصير، كما يشهد القدّيسون، أخانا وحياتنا وعضوًا في الجسد الذي ننتمي إليه نحن أيضًا. حينها يبدأ رجلُ الله في النوح لا على خطاياه الشخصيّة فحسب، بل أيضًا على الميراث الملعون الذي لارتداد العالم عن الله، ويتضرّع من أجل الخلاص الشامل.

في الفصل الذي يتحدّث فيه القدّيس سلوان عن انتحاب آدم، يعبّر القدّيس في العمق عن توبته الخاصّة. فصرخة آدم المدوّية بدموعٍ غزيرةٍ قد تردّد صداها في صحراء عالمٍ غارقٍ في الفتور واليأس، ومحرومٍ من نعمة الله المحيية والمنيرة. إنّ توبة آدم هي التوبة التي تلائم الإنسان المخلوق على صورة المسيح ومثاله. وعندما تُقدَّم توبةٌ كهذه إلى الله، تجتذبُ بركته وتنشرها في جميع أنحاء العالم.

5. العلم العظيم

إنّ الآفات الأساسيّة في أيّامنا هي: روح الكبرياء ومحبّة الذات، وإظلام الذهن وأسره من قبل الأرواح الشرّيرة، ومحبّة اللذّة، والفتور العامّ مع الشلل الروحيّ التامّ، والأحزان الكثيرة غير الطوعيّة، وأخيرًا، اليأس.

ما يجعل القدّيس سلوان آيةً لجيلنا هي قبل كلّ شيءٍ الكلمة التي تلقّاها من المسيح: "أبقِ ذهنكَ في الجحيم ولا تيأس". يلخّص هذا القول تقليدَ الكنيسة كلّه، ولكنّه في هذه الحالة المحدّدة، قيلَ بطريقةٍ موجزةٍ وبديهيّة.

من خلال الكلمة التي وجّهها الله إلى خادمه، كشفَ له السلاح الذي به يُغلَبُ العدوّ، وأظهر له وسيلة شفاء جسد البشريّة المجروح.

إنّ الجحيم هي جزءٌ من العالم المخلوق. انحدر إليها الربُّ نفسه لكي لا يترك شبرًا من الخليقة من دون أن يملأه بقوّته الخالِقة والمخلِّصة. حتّى خلال حياته الأرضيّة، نراه في كلّ مرّةٍ يتمجّد فيها، يوجّه ذهنه وأذهان تلاميذه نحو موته المخزي.

إذا كانت هذه الطريق –النزول أوّلًا ثمّ الصعود- هي التي من خلالها صالحَ المسيحُ الإنسانَ مع الله، فبنتيجة ذلك أنّه على الإنسان أن يسلكها هو أيضًا.

في الواقع، لكي يصبح الإنسانُ على مثال المسيح، عليه أن يتوسّع (stretch) نحو الأسفل ونحو الأعلى: في البداية نحو الأسفل من خلال التواضع ولوم الذات. يتّضع الإنسان أمام الله بإخضاع ذهنه وقواه النفسيّة إلى أدنى مستوى ممكن، لكنّه لا ييأس. ويتوسّع نحو الأعلى لأنّه ألقى مرساته في السماء، ويضع رجاءه كلّه على رحمة الله التي لا تُسبَر. من خلال لوم الذات، ينسحق كبرياؤه، وينسحق قلبه كلُّه. ولكن كما يشهد الآباء، لا شيء أشجع من قلبٍ منسحق.

يميل العدوّ إلى التوجُّه نحو الأعلى، هادفًا إلى تجاوز الله نفسه. عندما يلوم ناسكُ التقوى نفسَه ويتّجه نحو الأسفل، يعجز العدوّ بطبيعته عن اللّحاق به، وبذلك لا يعود الإنسان "أسيرًا لمشيئة العدوّ" (راجع 2 تي 2: 26)، ويبدأ بتذوُّق الحريّة "التي قد حرّرنا المسيح بها" (غلا 5: 1). إنّ التواضع الذي يستلزمه لومُ الذات يجتذب النعمة التي تشفي الضعفات وتُكمّل النقائص.

لا يدين الله مرّتين. عندما ندين أنفسَنا طوعًا ونعدُّ أنفسَنا مستحقّين الجحيم، يُعتقنا الربّ من الدينونة العتيدة. بالطبع، اختبر القدّيس سلوان هذه الحالة في شكلها المواهبيّ. إلّا أنّها عمومًا حالةٌ ممكنةٌ لكلّ مسيحيّ، لا بل ضروريّة، وتكون بقبول الآلام بصبرٍ ورجاءٍ في رحمة الله، مع تقديم التمجيد لاسمه ولوم أنفسنا فقط.

بالنسبة إلى القدّيس سلوان، صار قول الربّ "أبقِ ذهنكَ في الجحيم ولا تيأس" منهجًا نسكيًّا. كان له العلمَ العظيم الذي تعمّق فيه وأشار إليه بوصفه الطريق المؤدّي إلى ميناء اللاهوى الهادئ، وأخيرًا إلى الحياة الأبديّة.

6. الشخص

ليس الشخص مجرّد فردٍ نفسيّ، بل إنسانٌ خُلِقَ على صورة الله ويسعى لبلوغ مثال الله. كلّ أقنومٍ من أقانيم الثالوث القدّوس هو إلهٌ كامل، ويحمل ملء الجوهر الإلهيّ والقوّة الإلهيّة. على النحو عينه، يصبح الإنسان

أقنومًا عندما يحتضن في قلبه الوجود البشريّ بكلّيّته من البداية حتّى النهاية، ويرفعه إلى الله في صلاته المتضرّعة.

في لحظة الرؤيا المبارَكة، وقف المبتدئ الشابّ أمام المسيح وجهًا لوجه. عاينَ نظرته الهادئة وبذلك تذوّقَ الأبديّة. وانتقلت حالة المسيح هذه إليه، وصارت المشيئة الإلهيّة، التي هي خلاص الجميع، مشيئته هو. بدأ الشيخ يفهم وصيّة "أحببْ قريبكَ كنفسك" على أنّها أكثر من مجرّد قاعدةٍ أخلاقيّة. رأى في الحرف "ك" دليلًا لا على درجة محبّة، بل على وحدةٍ وجوديّةٍ في الكينونة.

7. الصلاة من أجل العالم

بعد الرؤيا، بدأ القدّيس سلوان بالتضرُّع من أجل خلاص الجميع، مصلّيًا إلى الله وجهًا لوجه. بات يرى المحيطين به بعينَي الله، لا بعينَي المنطق البشريّ القصيرتَي النظر. بات رؤوفًا بجميع المخلوقات، وأخذ يصلّي من أجل خلاص آدم الكونيّ. بالنسبة إليه، كانت محبّة القريب المعيار الذي يؤكّد أصالة محبّة الله.

8. محبّة الأعداء

في الجوهر، لم يصنّف الشيخ القدّيس الناسَ إلى أصدقاء وأعداء، بل إلى الذين يعرفون الله والذين لا يعرفونه. وإذ كان مدركًا أنّ البشريّة تُشكّل جسدًا واحدًا، لم يعد يستطع أن ينبذ أيّ عضوٍ من أعضاء جسده، ولا أن يتوقّف عن التوق إلى خلاصه. آمنَ بأنّ "الذين يُبغضون إخوتهم البشر ويرفضونهم هم ناقصون في كينونتهم، ولا يعرفون الإله الحقيقيّ، الذي هو محبّةٌ تعانق كلّ شيء، ولم يجدوا الطريق المؤدّي إليه".

إنّ وصيّة محبّة الأعداء هي ذروة الوصايا، لأنّها تعكس طريقة وجود الله. هو يقدّم حياته القدّوسة واللامتناهية إلى عدوّه، إلى الإنسان الخاطئ. وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الوصيّة تتجاوز قدرة الإنسان، ولا يمكن بلوغها من دون نعمة الروح القدس. ولهذا، بالنسبة إلى القدّيس سلوان، كان وجود هذه المحبّة مؤشّرًا على حضور الروح القدس، على المستوَيين الشخصيّ والكنسيّ.

إذًا، يحتوي تعليمه على المعيار الدقيق والموثوق للكنيسة الواحدة الحقيقيّة، والتي لا يمكن إلّا أن تكون الكنيسة التي تحمل في أحضانها نفوسًا هي مساكن للروح القدس، نفوسًا مملوءةً "محبّةً للأعداء شبيهةً بمحبّة المسيح، وتواضعًا شبيهًا بتواضع المسيح".

فضلًا عن المفاعيل التي ذكرناها، تَظهَرُ أصالة رؤيا القدّيس سلوان للمسيح بالتحديد في بساطة كتاباته. إنّ غنى الحياة الذي ينقله الله لمختاره لا يمكن وصفه بالعقل. هو ليس نتاج خيالٍ بشريّ، ولا يحرّك الخيال بأيّة طريقة.

لا يكتب القدّيسون شعرًا، بل يصفون خبرتهم الحيّة. ولا يُعرَف سرُّ أبديّة الله من خلال الأوصاف الجميلة والفكر السامي، بل من خلال العلاقة بالمسيح. في الاتّحاد بالله يكمن الكمال. إنّها علاقةٌ نجاهد لتنميتها وجعلها أبديّةً بدءًا من هذه الحياة. وكلمات مثل كلمات القدّيس سلوان تتولّى دور نجمٍ يهدينا في جهادنا.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Archimandrite Zacharias Zacharou (2021). *The Authenticity of the Vision of Christ in the Life of Saint Silouan*. Holy and Stavropegic Monastery of Saint John the Baptist, Essex, UK. Retrieved online from Essex Monastery.